برنامج الدَّرس الواحد السادس
الدَّرس (١٤)، ١٤٢٨

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي

حفظه الله تعالى

فوائد

البلوى والمحن

للعلامة العز ابن عبد السلام

المتوفى سنة ٦٦٠ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمْدُ لله رَبِّنَا، وأشْهَدُ ألَّا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شَريكَ لَه، وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه ورسُولُه.

أمَّا بَعْدُ.. فهذَا هُو الدَّرسُ (**الرابع عشر**) مِن بَرنامجِ (**الدَّرسِ الواحدِ**) **السادس**، والكِتابُ المقْرُوءُ فيه هُو: «فوائد البلوىٰ والمحن» لِلعلَّامةِ أبي محمد ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وقَبلَ الشُّروعِ في إقرائِه لا بُدَّ مِن ذِكرِ مُقدِّمتَينِ اثنَتَينِ:

المقدِّمةُ الأولَىٰ: التَّعريفُ بالمصنِّفِ، وتَنتَظِمُ في ثلاثةِ مَقاصِدَ:

المَقْصَدُ الأوَّلُ: جَرُّ نَسبِه؛ هو الشيخ العلامة [عبد العزيز بن عبد السلام] بنِ أبي القاسم السلمي الدمشقي، يكنىٰ بـ«أبي محمد»، ويلقب بـ«سلطان العلماء».

المقصَدُ الثاني: تاريخ مولده؛ ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨) وقيل: بل في السنة التي قبلها، والأوّل أرجح.

المقصد الثّالث: تاريخ وفاته؛ توفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العاشر من جمادىٰ الأولىٰ سنة ستين وستمائة (١٠/ جمادىٰ الأولىٰ/ ٦٦٠)، وله من العمر اثنتان وثمانون (٨٢) سنة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

المقدِّمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثةِ مقاصد أيضًا:

المقصد الأوَّل: تحقيق عُنوانه؛ اسم هـٰذا الكتاب هو «فوائد البلوىٰ والمحن»، ذكره بهذا الاسم جماعة منهم السُّبكي في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» والدَّاودي في «طبقات المفسرين» والبغدادي في «بداية العارفين»، ولم تحمل نسخة الكتاب الخطية هذا الاسم التَّام، وإنما وقع في آخرها (انتهت الفوائد)، فالاسم التام يستفاد من المصادر التي ذُكرت آنفا.

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ موضوع هـٰذا الكتاب هو الإرشاد إلىٰ منافع البلوىٰ والمحن التي تحيط بالعبد، فإنَّ الحكمة الإلهية طوَت في ضمن هـٰذه البلايا والمحن منافع كثيرة لابن آدم، فلا يجري علىٰ المؤمن منهم إلّا وفيه رخاء ومنحة؛ لأن رحمة الله قريبٌ من المحسنين، وأولىٰ الخلق بجريان عليه ووصول الرحمة إليه هم عباد الله المؤمنون.

المقصد الثالث: توضيح منهجه؛ لم يتجلَّ لهذا الكتاب وضعٌ خاصٌّ يفصل فيه إلىٰ أبواب وفصول ... للمقالة؛ إذ ساق مصنفه مقصوده من إيراد المحن والبلوىٰ متتابعة يشير إلىٰ كل فائدة بعدِّها، وقد ذكر كل فائدة مقرونة بأدلتها ما أمكن ذلك؛ فشحن هـٰذا الكتاب مع قلة صفحاته بكثيرٍ من آي القرآن الكريم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[قال الشيخ الإمام حجة الإسلام معتمد الأنام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بمن أبي القاسم الشافعي نفع الله به المسلمين وغفر لنا وله ولجميع المؤمنين] (١)

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

للمصائب والمحن والبلايا والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

أحدهما: معرفة عزّ الربوبية وقهرها.

الثانية: معرفة ذلة العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]، اعترفوا بأنهم مُلكه وعبيده، وأنهم راجعون إلىٰ حكمه وتدبيره، وفضائله وتقديره، لا مفرّ لهم منه، ولا محيد لهم عنه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا فائدتين من فوائد جريان المحن والبلوىٰ علىٰ العبد:

أولاهما: أنَّ في البلوىٰ التي تلحق العبد وقوفٌ علىٰ مقدار عزِّ ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقهره لخلقه، وأنَّ ما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان وأنَّ ما قضاه فلا راد لقضائه.

وثانيهما: أن .. ذلّ العبد وكسرًا لكبريائه وسطوته حتىٰ قر لعبودية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويظهر حاجته وفقره إليه.

واستدلَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ هذين الفائدتين لانتظامهما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فقولهم إذا أصابتهم مصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إذعانٌ لألوهية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إذعانٌ بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالأول: إشارةٌ إلىٰ العبودية باسم (الله)، والثاني إشارة إلىٰ الربوبية: ببيان كمال مُلكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأدعية الشرعية تنطوي علىٰ هذين الأمرين؛ لأن كمال افتار العبد إلىٰ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهما؛ بأن

---

(١) قال المصنف، وهذه من كلام النساخ، وبعض هذه الألقاب فيها نظر، فإن أبا محمد ابن عبد السلام وإن كان واسع العلم إلا أنه ليس بإمام؛ لأن الإمام هو الذي يقتدىٰ به من كلِّ وجه، وأبو محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ له هنَّات وكان منحرفا علىٰ عقيدة هل السنة كما بينه ابنه في محنة الوالد مع الحنابلة، وقد قرأ شيخنا فهد بن حمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ شيخ الجميع عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب للنووي فقال في أول كلامه: قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن إماما، وإنما هو علامة حافظ؛ لأن الإمام من يقتدىٰ به من كل وجه، وإذا كان الرجل مغموزا في عقيدته فإنه لا يكون إماما مطلقًا، فينبغي أن يتوقىٰ الإنسان في إطلاق ألقاب الإمامة، وعلىٰ هذا جرىٰ عمل المحققين من أهل العلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

يُظهر فقره إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُبيِّن إذعانه بإلهيته عز وجل، ولهذا صار سر القرآن بقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، لما فيها من تمحيص هذين الأصلين بقلب العبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقله تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين»: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع داء الرِّياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تدفعُ داء الكبرياء. انتهىٰ كلامه.

فنتج من هذا أنّ:

الجملة الأولىٰ توجب الإقرار بالعبادة.

والجملة الثانية: توجب الإقرار بالربوبية.

وإذا تأملت الأدعية الواردة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية= وجدتَّ جمهورها قائمًا علىٰ هذا الأصل الذي ذُكر.

❀❀◈❀❀

الثالثة: الإخلاص لله تعالىٰ؛ إذ لا مرجع في دفع الشّدائد إلَّا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧]، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدةً ثالثةً من فوائد المحن والبلوىٰ، وهي: **تحقيق الإخلاص في قلب العبد**؛ لأن القلب قد يقبل الشِّركة في الرخاء، فإذا وردت عليه المحن والبلوىٰ حصل له الصَّفاء والنقاء، وقد عرفتم فيما سلف: أنّ الإخلاص هو تصفية القلب من قصد غير الله، والمحن للقلب بمثابة عصْرِه، وإذا عُصر القلب لم يبق فيه إلا توجُّه العبد إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لإيقان العبد عند شدة الألم: بأنه لا رافع له إلا الرّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الأصل شيءٌ مغروسٌ في الفِطْرة، حتىٰ أنَّ المشركين يبلغ بهم الحال من شدّة الظنَك والكرب وهم في البحر ما يخرج به أصل الفطرة هذا، فكانوا من قبل في حال رخائهم يُشركون بالله، فلما ركبوا في الفُلك وجرىٰ عليهم البلاء أوجب هذا البلاء لهم صفاء توجُّه قلوبهم إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلم يبق في قلوبهم حينئذٍ إلا قصْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده فعند ذلك يدعونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُخلصين له الدِّين كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك عنه في قوله: (﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]).

ومن دقائق أحوال النفس: أن القلب في حال الرّخاء تتسلل إليه الشِّركة، وفي حال البلاء لا يبقىٰ فيه إلا

أعظم مقصودٍ؛ وهو: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويتجلىٰ هذا في مشاهد:

منها: إذا اعتلَّت صحة العبد فإن العبد إذا مرض لم يتعلّق في رفع علته إلا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومنها: أنَّ العبد إذا كان في ساعة احتضاره فبلغ به الكرب أعلىٰ مبلغه لم يبق فيه إلا الفزع إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولذلك أُرشد المؤمن بأن يكون توجُّهه في تلك الحال علىٰ أقوىٰ صلةٍ وأوثقها بالرّب؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يُحسن الظّن بربه**» ممّا يدل علىٰ أن توجه القلب إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قويٌّ في تلك الحال، وإما أن يكون ذلك التوجه مقرونًا بالخوف والرهبة، وإما أن يكون مقرونًا بحُسن الظن والرغبة فيما أعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعباده المؤمنين، وأُرشد العبد لأن يكون علىٰ هذه الحال الثانية؛ لأنها الأكمل.

الرابعة: الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ والإقبال عليه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:٨]

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدةً رابعةً من فوائد المحن والبلوىٰ؛ وهي: أنَّ **البلوىٰ إذا جرت علىٰ العبد أورثته إنابته لربه**، والمراد بالإنابة: الرُّجوع إلىٰ الله؛ فإنَّ العبد قد يُبعد عن ربه، وإذا جرىٰ عليه البلاء لم يجد له ملجأً ولا ملتجأً إلَّا رجوعه إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإقباله عليه؛ فحينئذٍ تتحقَّق هذه الحال في قلبه، ويصير مُنيبًا لربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الخامسة: التضرُّع والدُّعاء: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر:٤٩]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام:٤١]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام:٦٣].

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدةً خامسةً من فوائد البلوىٰ والمحن؛ وهي: **ظهور التظهر والدعاء إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حّق من ابتلي بشيءٍ من البلايا ومُسّ بطرفٍ من المحن**، فإنّه يطلب حينئذٍ من يتعلَّق به، فلا يجد نافعًا له حينئذٍ إلا دعاءه لربه عز وجل، فيلذ بدعاء الله عز وجل ويتمسّك به كما جاء في هؤلاء الآيات.

وكلما ازداد البلاء ازدادت حاجة العبد إلىٰ الدُّعاء؛ لأن البلاء من قدر الله، وقدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُدفَع بأشياء منها: الدعاء؛ كما بيّنه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في مقدمة كتابه «الجواب الكافي»، وإذا استحكمت

الفتن لا ينجو إلا من أقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتضرُّعه، ولذلك عُدل الإقبال علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتضرّع إليه في زمن الفتنة بالهجرة إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث معقل بن يسار الذي رواه مسلم أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العبادة في الهرْج كهجرة إلي**».

ومعنىٰ الحديث: أن العبادة في زمن الفتنة تكون بمنزلة الهجرة إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما كانت بهذه المنزلة؛ لأن المقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حينئذٍ قد انصرف عمَّا شُغل به الناس وقوي وقوف قلبه بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُناجيه ويسأله، فصار بمنزلة من هاجر إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ووجه الشبه بينهما: أنَّ المتعبد في الفتنة هاجر عمَّا عليه الناس بقلبه، والمهاجر إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إليه ببدنه، فيشتركان في قدرٍ من التَّرك وقع عند هذا علىٰ حال، ووقع عند هذا علىٰ حالٍ أخرىٰ.

ومما يتّصل بهذا المقام: أن الفتن التي تكون في آخر الزمان يحتاج فيها العبد إلىٰ إقبالٍ شديدٍ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالدُّعاء، وذلك لشدّة تلك الفتن كما أخبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد بيَّن هذا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ قال فيما رواه ابن أبي شيبة وغيره بسندٍ صحيح: «**تكون فتنٌ لا ينجو منها إلَّا من يدعو كدعاء الغريق**»، ومعلوم أن الغريق هو من أكثر الناس لهجًا بالدُّعاء؛ لأنه يُصارع الموت، وكذلك الفتن التي تُستحكم في آخر الزمان هي بمنزلة مصارعة الموت؛ لأن الغريق يُصارع موت بدنه، والواقع في الفتنة، يُصارع موت قلبه. ولا ريب أن الخوف علىٰ موت القلب أعظم من الخوف علىٰ موت البدن، وخروج الروح.

❀❀◈❀❀

السّادسة: الحلم عمن صدرت عنه المصيبة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]، «**إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة السادسة من فوائد البلوىٰ والمِحن؛ وهي: (الحِلم عمن صدرت عنه المصيبة)، فإذا تسبّب أحدٌ في إلحاق مصيبةٍ بك فإن الحقيق بك أن تستعمل هذه الفائدة، فتكون حليمًا مُتشبّهًا بأبيك إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنّ الحِلم ممدوحٌ، وهو محبوبٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما في حديث ابن عباس هذا الذي رواه مسلم في «صحيحه» وأصله عند البخاري إلا أن الجملة هذه عند مسلم وحده.

والصحيح في تعريف الحِلم والتفريق بينه وبين الأناة التي قُرنت به في هذا الحديث أن الحِلم هو السكينة في مقابلة ما يُثير الغضب، والأناة هي السكينة مُطلقًا من دون التفاتٍ إلىٰ الخير السّابق.

فالأناة أكملُ من الحِلم، لأنها سكينةٌ لازمةٌ للعبد في كل حال، فهي سجية منطبعةٌ فيه، والحلم إنما يظهر إذا وجد مثير الغضب.

ثم بين المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن الحِلْم مراتب تختلف باختلاف المصائب في صغرها وكِبرها، فكلما كانت المصيبة أعظم كلما كان الحِلْم عندها أفضل، وبتصاغر المصائب يتصاغر قدْر الحِلْم المقابل لها.

وإنّ مما يكتسبه الإنسان هذا الخُلق الكريم -وهو الحِلْم- أن يعوِّد نفسه دائمًا عند مُلاقاة المصائب أن اللّائق بعقله هو الإعراض عمَّن أحدث تلك المصيبة وألحقها به، وأن يُبادر إلىٰ عدل نفسه عنه، لأنَّ المقدور قد جرىٰ والبلاء قد وقع، فمن السفه مناقشته بعد مضائه.

فإذا وقع الإنسان حادثٌ في سيارته مثلًا فإنه لا مدفعة له من قوله ليقابله: «ألا تبصر، ألا ترىٰ» لأن هذه لا تنفع في رد القضاء، فقد مضىٰ القضاء بما قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كان لا منفعة فيها، فالأولىٰ بالعاقل أن يُعرض عنها، وكلّما أخذ العبد نفسه من هذه الرياضة في صغار الأمور وكبارها كلما رسخ الحِلم في نفسه، فصار سجيةً له.

السّابعة: العفو عن جانيها ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران:١٣٤]، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:٤٠]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة السابعة من فوائد البلوىٰ والمحن؛ وهي أنها: **تورث العفو عن جانيها في حق بعض كُمّل الخلق** الذين مدحهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة آل عمران فذكر من مدائحهم: (﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران:١٣٤]) وقال: (﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:٤٠]) وهذا من أعظمِ الجزاء، فإن العمل إذا وكِل أجره إلىٰ الله كان ذلك أعظم لثواب صاحبه، كما وقع هذا في جملةٍ من الأعمال:

منها: الصِّيام، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول كما ثبت من رواية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه في «الصحيح» أن الله يقول: «**الصّوم لي وأنا أجزي به**».

ومنها: الصّبر، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: (﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠])، والأجر الذي يكون بغير حساب إنما هو الأجر الذي يُرد إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن كل عملٍ بُين أجره وما رُد من

العمل إلىٰ الله صار أجره مُطلقًا غير مُقيدٍ.

ومن تأمل هذه الأعمال التي جاء فيها ردّ الأجر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كالعفو، والصبر، والصيام، وجد بينها قدرًا مُشتركًا، وهو أن العبد فيها يحبس نفسه عن مراداتها، فالصابر والصائم والعافي عن المسيء كلُّهم يحبسون أنفسهم عن مراداتها:

فإن الصائم مُراد نفسه التلذّذ بالطعام.

وإن الصابر مُراد نفسه: التلذذ بمقابل ما جرىٰ عليه من الألم.

والعافي مُراد نفسه: أن يوقع الضر بمن أساء إليه.

فلما حبسوا أنفسهم عن مراداتها استحقوا أن يوكل أجرهم إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا صار حبس النفس عن مراداتها بالعفو مثلًا موجبًا للعز، كما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وما ازداد عبدٌ بعفوٍ إلا عزًّا**»، فكلما عفا الإنسان زاده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِزًّا، ولهذا كان الأعز هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه يعفو عن الناس كما في الصحيح من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا أحد أصبر علىٰ أذىً يسمعه من الله**» فلما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتقدّم علىٰ غيره في العفو عن المسيئين من الخلائق صارت العزة الكاملة له.

ثم لما كان النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حظٌّ من هذا صارت العزّة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعده، وكلّ من تشبه بهذا الأصل من المؤمنين فإن له نصيبًا من العزة، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة المنافقين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فكل ذلك خارجٌ من هذا الأصل الذي ذكرناه.

الثامنة: الصبر عليها؛ وهو موجب محبة الله تعالىٰ وكثرة ثوابه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران٤٦]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر]، «وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر».

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة الثامنة من فوائد المِحن والبلوىٰ؛ وهي أنها: **تثمر في نفس صاحبها الصبر علىٰ هذه المصيبة التي جرت عليه**، وإذا صبر الإنسان علىٰ تلك المصيبة أوجب له ذلك الصبر محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكثرة ثوابه، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران]، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة].

وفي «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**» فمن أعظم المنحة الإلهية، والعطية الربانية أن يوفِّق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبده إلىٰ هذا الخُلق الكريم.

وقد ذكرنا فيما سلف أنه لجلالة هذا الأصل أُمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ وجه الإفراد، فقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف]، وأُمر به المؤمنون علىٰ الجمع، فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، ثم لم يُكتف بأمرهم بمجرد الأمر بالصبر؛ بل أُمروا بما هو أعظم منه وهو: المصابرة في الصبر علىٰ المكاره، فقيل لهم: ﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران].

ومن قواعد الأمر: أن الأمر الوارد في الخطاب الشرعي إذا جاء موجهًا إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء موجهًا إلىٰ المؤمنين، فإن ذلك يدل علىٰ عظمة المأمور به، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التقوىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، وقال في الصلاة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النور:٥٦] وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ [العنكبوت:٤٥]، إلىٰ آخر ما يندرج في هذا الباب العظيم.

ومن قواعد الصبر: ما أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي سعيد السالف في «الصحيح»: وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من يتصبّر يُصبره الله**» فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن العبد يقع له اكتساب الصبر وذلك بتصبير نفسه، فكلما ورد عليه شيءٌ مؤلم عرف أن صبره علىٰ هذا المؤلم وحبس نفسه عن الجزع والتسخُّط والغضب أن هذا يورثه الخير، فعند ذلك لا يزال يتكاثر به هذا الخُلق حتىٰ يصير من أخلاقه.

والأمر كما قال بعض السلف من المتقدّمين، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامٍ له قال: «من لم يصبر صبر الكِرام سلا سُلُوّ البهائم»، فإن البهيمة إذا ذُبح ولدها، تألمت وحنت وأنَّت يومًا وثانيًا، وثالثًا، ما هي إلا أيام يسيرة حتىٰ تنسىٰ ما ألمّ بها من مصيبة، وكذلك ابن آدم فمهما تمادىٰ به الألم فإنه لابد أن ينسىٰ ذلك الألم، فالكريم هو الذي يُصبِّر نفسه عند ورود المصيبة، ولذلك كان الصبر عند أول المصيبة لا آخرها، كما في حديث أنس في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**»

يعني ظهور حقيقة الصبر بجلاء إنما يكون عند وقوع البلاء في أوّله، أما إذا تمادىٰ بالإنسان فإنه قدَرًا يكون صابرًا لا باختياره، لأن القدر نافذ، فحينئذٍ لا مناص له ولا محيص ولا محيد عن أن يحبس نفسه عن تسخطها فيما مضىٰ مما أجراه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ العبد، وليعلم الإنسان أنه إذا لم يصبِّر نفسه علىٰ الأشياء اليسيرة فإنه لا يستطيع تصبيرها علىٰ الأمور العظيمة، وكما أنّ المولود إذا ولد لا يستطيع أن يتناول الطعام الفاخر من أرزّ أو لحمٍ أو غيره، وإنما يُجرب شيئًا فشيئًا بتمرٍ ولبنٍ فلا يزال يترقىٰ بشيء يُعقد له حتىٰ يستطيع أن يأكل الطعام الفاخر، فكذلك العبد إذا لم يُجرب نفسه في المصائب الصغار حتىٰ يورثه ذلك التجريب الصبر علىٰ المصائب الكبار، وإلا **فإن من لم يصبر علىٰ عثرة قدم لا يصبر علىٰ ما فوق ذلك من الألم.**

فإذا خرج أحدنا فزلقت قدمه مع بابٍ أو درجٍ أو غيره فتألم من مجرّد تلك العثرة، ولم يلزمه الصبر حينئذٍ، فإنه لا يصبر علىٰ ما فوق ذلك من الألم، وهذه أخلاقٌ نفسانية، وأذواق [مجانية] كلما تعاهدها الإنسان نمت منه نمت معه، وكلما أهملها الإنسان كلما صار صُفرًا منها.

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**والذي نفسي بيده إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء**».

وقال ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه: «حبذا المكروهان: الموت والفقر»؛ وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلىٰ ثمرتها وفائدتها، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها مع تجرُّعه لمرارتها.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة الفائدة التاسعة من فوائد المحن والبلوىٰ؛ وهي: **الفرح بوقوع المصيبة بالنظر إلىٰ الفوائد المترتبة عليها.**

فالفرح هنا لما ينشأ من المبتدأ، وإنما نشأ من النظر في المنتهىٰ، لأن مُبتدأ المصيبة مؤلمٌ ولا يُفرَح بمؤلمٍ عند أصحاب العقول الكاملة؛ ولكن كامل العقل لما نظر إلىٰ المنتهىٰ وعلم أن جريان المصيبة عليه يورثه فوائد كثيرة فرح بجريان المصيبة باعتبار ما تؤول إليه تلك المصيبة.

وهذا هو المعنىٰ الذي استقر في قلوب أهل الإيمان، وصار مآلهم ما جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه بسندٍ حسن من حديث أبي سعيد الخُدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: («والذي نفسي بيده إن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء») ووجه ذلك: أن العبد إذا وقع به البلاء عِلم

أن بعده الرخاء، ففرح بما ينتهي إليه بلاؤه من رخاء، ولهذا قال وهب بن منبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما رواه أبو نعيم في كتاب «الحلية»: «**لا يكون الرجل فقيهًا كامل العقل حتىٰ يفرح بالبلاء، لأنه يعلم أن وراء البلاء رخاء**».

وهذا هو المعنىٰ الذي أُريد في هذا الحديث، فإن من أُصيب ببلاء يستبشر من بعد، برحمةٍ من الله وفضل.

وذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قول ابن مسعود: («حبذا المكروهان: الموت والفقر») وتحديده إياهما إنما هو لأجل المعنىٰ الذي ذكرناه، لا لأجل الألم الواقع فيهما مع المقرون بهما.

ومثل هذا فرح من عظُمت أمراضه وعلله بشرب الأدوية الحاسمة لها، مع أنه يتجرّعها ولها مرارة، ونفسه تتكرّهها وتأباها، ولكنه يُحمّلها مراراتها ليفرح بنهايتها فهذا أشبه شيء بهذا المعنىٰ الذي قرره المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

❀❀◈❀❀

العاشرة: الشكر عليها؛ لما تضمنته من فوائدها؛ كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه، المانع له من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة العاشرة من فوائد المِحن والبلوىٰ؛ وهي: **الشكر علىٰ جريان المصيبة لما تضمنه من فوائد.**

وهذه المرتبة مرتبةٌ أعظم من مرتبة الصبر، فإن الصابر يحبس نفسه علىٰ أمر الله، وأما الشاكر فإنه يزيد فوق ذلك، فهو يحبس نفسه علىٰ أمر الله ولا تحدث في نفسه منازعة ثم يُظهر شهوده لنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ثم تلميذه ابن القيم، ثم حفيده بالتلمذة ابن رجب الحنبلي أن تلقي العبد للمصيبة الواقعة به يقع علىٰ ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: أن يتلقّاها بالصبر، وحقيقته: حبس النفس علىٰ أمر الله.

وثانيها: أن يتلقاها بالرِّضا، وحقيقته: حبس النفس علىٰ أمر الله مع براءتها من المنازعة.

وثالثها: الشكر لله وحقيقته: إظهار شهود منة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

وهذه المراتب منازلها بحسب هذه السياقة، فأقلها: الصبر، وفوقه الرضا، وفوق ذلك الشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ هذه المصائب التي تجري علىٰ العبد.

❀❀◈❀❀

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ

عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ [الشورىٰ]، «ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتىٰ الهم يهمه، والشوكة يشاكها إلا كفر به عن سيئاته».

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فائدةً أخرىٰ هي الفائدة الحادية عشرة من فوائد البلوىٰ والمحن؛ وهي: أنها تُمحص ذنوب العبد، وخطاياه، ويُكفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه بذلك، فيعلم العبد أن ما وقع به من بلاء فإنما هو لأجل ذنب جناه، فيورثه ذلك معرفة ذنوبه والمبادرة إلىٰ طلب التوبة منها، كما أنه يشهد أن هذه المصيبة التي وقعت عليه فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدفع عنه بها شيئًا من ذنوبه.

فإن البلايا والمصائب للقلوب بمنزلة المطهِّرات للأبدان واللباس، فإن اللباس إذا طرأ عليه نجاسةٌ أو أصابت البدن نجاسةٌ طُهر بمطهرات معروفة عند الفقهاء.

والقلوب إذا طرت عليها نجاسات الذنوب فإن لها مُطهرات عِدة منها: ما ذكره المُصَنِّف هاهنا: وهو أنَّ العبد تجري عليه المصيبة فيندفع عنه من ذنوبه بقدر شدّة البلاء التي تقع به، ومن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الأمّة المرحومة أنّ العبد المؤمن لا يجري عليه شيء من البلاء حتىٰ الشوكة التي يُشاكها والعثرة التي يتعثّر فيها إلا وله أجرٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثانية عشرة: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم علىٰ بلواهم، و«الناس معافىٰ ومبتلىٰ فارحموا أهل البلاء، واشكروا الله علىٰ العافية».

وإنَّما يرحم العُشّاق من عشِقَا

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الفائدة الثانية عشرة في جريان المصيبة؛ وهي: أنها تورث صاحبها رحمة أهل البلاء، وسعيه في مساعدتهم علىٰ بلواهم، فإن العبد يكون منأىٰ عن أولئك المبتلين حتىٰ إذا أصابتهم مصيبة تذكر ما هم عليه ففزع إلىٰ مساعدتهم؛ كما قال بعض الحكماء: الصحة تاج علىٰ رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضىٰ.

ومقصودهم: يوافق مقصود المؤلف فإن البلاء لا يعرفه الإنسان قدر ألمه إلا إذا ذاقه، فيورثه هذا الذوق أن يرحم من شاركه في هذا البلاء، وأن يسعىٰ في دفع البلوىٰ عمن يُصاب بشيءٍ من نفسها.

الثالثة عشرة: معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها، فإن النعم لا يعرف مقدارها إلا بعد فقدها.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ (الفائدة الثالثة عشرة) وهي: (معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها، فإن

النعم لا يُعرف مقدارها إلا بعد فقدها) عند أكثر الناس، فإن نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرةٌ لا يأتي عليها حصرٌ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل]، وإذا جرىٰ البلاء والمحنة علىٰ عبدٍ في شيء من هذه النِّعم فإنه يتعرف عليها بفقدها فلما كانت النعمة بين يديه لم يكن شاهدًا لها فلما سُلب تلك النعمة عرف مقدار النعمة التي كانت عنده كالغني إذا استقر، والقوي إذا ضعُف فإنهما كان غافلان عن نعمة المال والقوة، فلما مس هذا بضعفٍ ومس ذاك بفقر عرفا قدر النعمة التي كانت بين أيديهم.

❀❀◈❀❀

الرابعة عشرة: ما أعده الله تعالىٰ علىٰ هذه الفوائد من ثواب الآخرة علىٰ اختلاف مراتبها.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة (الرابعة عشرة) من فوائد المحن والبلوىٰ؛ وهو: الثواب الذي أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الفوائد التي تقدمت من الشكر والصبر والرضا وغيرها؛ فإن هذه الفوائد التي أثمرها جريان البلاء والمحنة علىٰ العبد لها ثوابٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل لا حصر لثواب بعضها كما في الصبر، وإنما جرّ إليه ثواب هذه الأعمال لحوق المصيبة به ووقوعها عليه؛ فكان هذا من جملة فوائدها.

❀❀◈❀❀

الخامسة عشرة: ما في طيّها من الفوائد الخفية.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور:١١].

ولما أخذ الجبّار سارة من إبراهيم كان في طيّ تلك البلية والمصيبة أنْ أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فكان من ذرية إسماعيل سيد المرسلين وخاتم النبيين، فأعظم بذلك من خير كان في طيّ تلك البلية.

وقد قيل:

كم نعمة مطوية لك بين أثناء المصائب

وقال آخر:

ربّ مبغوض كريه فيه لله لطائف

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الفائدة (الخامسة عشرة) من فوائد المحن والبلوىٰ؛ وهي: منفعة ما

ينطوي من الفوائد الخفية في المحن والبلايا التي يُرزأ بها العبد، فإنه قد يكون فيها شيءٌ من النعمة يخفىٰ عليه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء])، وقال: (﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة:٢١٦]) وقد قيل: «**كم من منحة في محنة**» وقيل: «**المحن وعاء المنح**» فإن العبد إذا جرت عليه مِحن فإن من فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه ورحمته به أن ينثر عليه من المنح ما لم يكن جاريًا عليه من قبل، وإنما وقعت هذه المصيبة، ثم صار في طيّها من النعم ما لا يعلمه إلا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكان علمه محجوبًا عن العبد كما وقع لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وزوجه سارة مع الجبار لما عرض لهم فأنصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، وأخدمهما هاجر فولدت هاجر لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما تسرّىٰ بها ولدت له إسماعيل الذي كان أصل العرب، وكان منه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصارت هذه المنحة مطويةً في تلك المحنة.

السادسة عشرة: إن المصائب والشدائد تمنع من الشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر، فإن نمرود لو كان فقيرًا سقيمًا فاقد السمع والبصر لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك في ذلك، وقد علل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محاجته بإتيانه الملك؛ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة:٧٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ:٢٧]، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

والفقراء الضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء.

ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل فنسبوا إلىٰ الجنون والسحر والكهانة، واستهزئ بهم، وسُخر منهم؛ ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام:٣٤]، وقيل لنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾

[آل عمران:١٨٦].

الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وتغربوا عن أوطانهم ، وكثر عناؤهم ، فاشتدَّ بلاؤهم ، وتضافر أعداؤهم، فغلبوا في بعض المواطن، وقُتل منهم بأحد بئر معونة وغيرهما من قتل ، وشجّ وجه الرسول ﷺ وكُسرت رباعيته، وهشمت البيضة علىٰ رأسه وقُتلت أعزاؤه ومثل بهم فشمتت أعداؤه، واغتمّ أولياؤه وابتلوا يوم الخندق ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[الأحزاب:١٠]، فكانوا في خوف دائم وعري لازم، وفقر مدقع، حتىٰ شدوا الحجارة في بطونهم من الجوع ؛ «ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بر في يوم مرتين»؛ فأوذي بأنواع الأذية حتىٰ قذفوا أحب أهله إليه، ثم ابتلي في آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنسي، ولقي هو وأصحابه من جيش العسرة ما لقوه ومات ودرعه مرهونة عند يهودي علىٰ آصع من شعير ولم تزل الأنبياء والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بعد الوقت ، يبتلىٰ الرجل علىٰ قدر دينه ، فإن كان صلبا في دينه شدد في بلائه؛ ولد كان أحدهم وضع المنشار علىٰ مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه ، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء**»، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح وتصرعها مرة وتعدلها أخرىٰ حتىٰ تهيج**».

فحال الشدة والبلوىٰ مقبلة بالعبد إلىٰ الله عز وجل، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢].

ولأجل هذا تقللوا في المآكل والمشارب، والملابس والمناكح، والمجالس والمساكن، والمراكب وغير ذلك، ليكونوا علىٰ حالة توجب لهم الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ والإقبال عليه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة السادسة عشرة وأطال في بيانها لما يوجز عنه بقولنا: **إن من فوائد المحن والبلوىٰ أنها تُطهر النفس من الأخلاق الرذيلة وتزكيها بالأخلاق الجميلة الجليلة**، وإذا فُقدت المصيبة والبلية تمادت النفس في غيها واستجلبت مزيل خلقها كالتكبر والتجبر، والأشر، والبطر، كما يتفق هذا للملوك والأغنياء والعُظماء، وإذا مُست النفس ببلية زكت أخلاقها وحسُنت أعمالها، وقوي إقبالها، ولذلك كان هذا مما تُصلح به نفوس كُمّل الخلق من الأنبياء والمؤمنين فكانوا أشد الناس بلاءً مُرتَّبين علىٰ أمثلهم فأمثلهم كي تزكو أخلاقهم وتحسُن أعمالهم، وتطهر نفوسهم من الأخلاق الرذيلة

المستبشعة.

السابعة عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالىٰ، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]: أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة.

فهذه نبذ مما حضرنا من فوائد البلوىٰ.

ونحن نسأل الله تعالىٰ والعفو والعافية في الدنيا والآخرة، فلسنا من رجال البلوىٰ.

وفقنا الله تعالىٰ للعمل بما يحب ويرضىٰ وبرأنا من المحن والرزايا.

تمت الفوائد بحمد الله ومنّه ولطفه، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ختم المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذه الفوائد بفائدة عظيمة؛ وهي: **أن المحنة والبلوىٰ تنتج الرضا الموجب لرضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**، فإن المصائب تنزل علىٰ العباد، وتُقابل بأنواع من المقابلات:

فمنهم من يسخطها ويتسخط من جريانها عليه.

ومنهم من يرضىٰ بها.

فمن تسخط فله السُّخط، ومن رضي فله الرضا، كما روىٰ الترمذي بسندٍ حسن من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السُّخط**»، ورضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ العبد هو غاية الغايات، لأن العبد إذا رضي عنه ربه أوصله إلىٰ أعلىٰ الكمالات، وأعلىٰ الكمالات ليس دخول الجنّات، ولكن أعلىٰ الكمالات هو مباشرة العين بالنظر إلىٰ ربِّ العالمين، ولذلك فإن أهل الجنة لا يؤتون نعيمًا ولا لذةً أعظم من نظرهم إلىٰ ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما يُحصل النظر لرضا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن عباده، ولذلك فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يذكر الجزاء بالجنة، ويذكر أيضًا الجزاء بالرضا، كما ذكره في مقامات عِدة منها: في آخر سورة البينة فذكر أن لأولئك أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ثم بين حالهم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد رضي عنهم وقد رضوا عنه فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه.

فكرر الرضا للإعلام بأن نعيمٌ منفرد، أعظم من مجرّد الإنعام بدخول الجنة فإنه هو الذي يوصل إلىٰ الغاية العظمىٰ وهي رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الفوائد العظيمة ممّا يحتاج إليها العبد في إصلاح نفسه فينبغي أن يُديم النظر فيها، وأن يتعرّف إلىٰ دلائلها، وأن يسترشد في أحكامها، وأن يسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حُسن الأخذ عند جريان البلوىٰ عليه، والأمر كما قال أبو محمد: (فلسنا من رجال البلوىٰ) وقد قال الصادق المصدوق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما جاء في الصحيح: «**لا تتمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية**» فدل هذا علىٰ أن أمر البلوىٰ شديد، وقد يتمنّىٰ العبد البلاء فإذا جرىٰ عليه لم يحتمل ذلك البلاء، كما وقع لبعض المتألهين من أنه كان يدعو ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يصنع به ما شاء فإنه عنه راض فابتلاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحبس البول فكان يمر علىٰ الصبيان في الكُتّاب يسألهم أن يدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له فإنه تجرأ علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فادّعىٰ أنه يبلغ الرضا منه، فلما وقع عليه يسير البلاء لم يحتمل ذلك، فهذا يبيّن نعمة العافية، وأنها من أعظم النعم كما تقدم معنا، وإذا وقع البلاء بالعبد فليعلم أن في ضِمنه نعمٌ كثيرة وآلاء جليلة، فليسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من فضله ومنّته.

نسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يمنَّ علينا بإنعامه وإكرامه وأن يجعلنا من الشاكرين في السراء، الصابرين عند نزول البلاء، وأن يتولانا بولايته، وأن يُكرمنا بطاعته.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الدرس والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد، وآله وصحبه أجمعين.